عظمـــاء صنعـــوا التـــاريخ

بتهوفن

غاندى

- رغم المآسى والأحزان .... رغم الجمود والوجوم .... رغم هذا الصمت المطبق من حوله، وصوت هدير الشلالات أمامه يخبو ويضيع ..... وأغادير الطيور أمامه تتلاشى وتختفى .... لكن قيثارته ظلت تطلب وجدانه ..... شقت بحور السكون ..... وأسمعت الدنيا سيمفونيات السحر والجمال !!

(الموسيقار لدفك بتهوفن)

- من كان يصبوا إلى خدمة الإنسانية بجميع إحساساته ومشاعره، لابد أن يحيا حياة التبتل فالزعيم لايستطيع أن يجمع بين حياة الجسد وحياة الروح .....

(المهاتما غاندى)

(قوة الإرادة)

- هل تستطيع أن تتخيل أنغام الموسيقى فى داخلك .... وتطرب بها؟

فإذا كنت كذلك ... أفلا أجدر بك أن تتخيلها فى ترنيمة جديدة تشدو بها للرب إلهك الذى وهبك البصر والسمع والخيال ..... وجاء واهباً لك الحب والفداء والخلاص ...

- أكتب ترنيمة جديدة تشكر فيها الله على كل نعمة أعطاها لك ؟

(الموسيقار الأصم)

كانت طفولة (لدفك بتهوفن) طفولة بائسة للغاية، فمنذ أن بلغ الرابعة من عمره كان والده يجلسه قسراً على كرسى البيانو ويلقنه العزف. وذلك ما قاله أحد جيرانه فى وصفه لذلك الفتى الغض وهو يجلس على البيانو، بينما إنسابت دموعه على وجنتيه مدراراً.

كان والده مغنى البلاط فى مدينة بون، ولم يكن يوفر شيئاً من مرتبه لإنفاقه على أسرته الكبيرة، بل كان ينفق كل دخله على شرب الخمور.

وكثيراً ما كان يعود إلى المنزل فى منتصف الليل بصحبة زملائه العابثين فينتزع إبنه الصغير "لدفك بتهوفن" من فراشه ويرغمه على تسليتهم بالعزف حتى الفجر، وعلى الرغم من أن لدفك كان يهوى الموسيقى فلم يكن أبداً يميل الى جو الصخب الذى يفرضه عليه والده.

لقد أحب الفتى والدته، ولكن معاملة والده لها كانت تتسم بالخشونة والعنف، حتى قيل أنه ما من أحد رآها يوما تبتسم. وأما بالنسبة لمواهب لدفك ... فقد رأى معلمه ما سره فى لدفك من موهبة وإحساس رقيق فاتخذه صديقاً له . وفى سن الثالثة عشره عين لدفك مساعداً فى عزف الأرغن لدى البلاط، وحتى عندما كان الفتى لم يزل فى صباه الباكر كان يؤلف الموسيقى. على أنه لم يتمكن من عزف كل ما كان يؤلف لصعوبة بعضه، فكان يقول : سأعزف ذلك عندما أكبر . وبعد بلوغه السابعة عشره من عمره سنحت له الفرصة كى يعزف للموسيقى

الكبير "موزارت" فى فينا، ولكن بدأ أن موزارت لم يستسيغ عزف لدفك، مما أدخل الخيبة والفشل فى قلب هذا الشاب النابغة.

بعد هذا الاختبار بقليل حدثت له مأساه كبرى - فقد توفيت والدته، وعلى أثر ذلك باع والده ملابس زوجته بثمن زهيد أنفقه على المسكرات، فكان ذلك كله صدمه كبرى للفتى لدفك.

قد تظن أن هذه المآسى ستحطم روح لدفك المعنوية. ولكن العكس هو الذى حدث فقد أعانته هذه المآسى على التغلب على مصاعبه بعزم قوى وإراده من حديد وبدأ يعد نفسه ليصبح موسيقياً شهيراً. وذلك ما حدث بالفعل، فان نغمة الصراع والنضال تكاد لا تخلو منها أى معزوفه من موسيقاه.

وفى سن الحادية والعشرين التقى بتهوفن بالموسيقى الشهير (هايدن) حيث أبدى هذا نحوه عطفاً ظاهراً، ودعاه كى يدرس معه فى فينا حيث أستقر فيها حتى وفاته، ولكن هل تستطيع التفكير بشئ أسوأ من أن يصاب موسيقياً بالصمم ؟ ذلك ما حدث للموسيقى لدفك بتهوفن نفسه !

كان حتى وهو فى سن العشرين يقول للناس من حوله بأنه يفقد سمعه تدريجياً الى أن أصيب بالصمم الكامل ، ولم يعد يتمكن من سماع الموسيقى إلا ما يتخيله منها فى ذهنه وفى عام ١٨٢٧ أخذت صحته تسوء تدريجياً الى أن لزم الفراش، وقد هبت ذات يوم عاصفة هوجاء مصحوبة بوميض البرق وقصف الرعد وحدث فى أثنائها أن أرتد بتهوفن الى الوراء وهوى على سريره فاقداً كل حركة ...

إن عشرين ألف شخص وقفوا أمام فندله فى يوم وفاته وساروا خلف نعشه متأثرين باكين. وبلغوا ألمدفن حيث ووري التراب ... هناك رقد بكل ما يمتاز به ذلك الموسيقى العظيم من شهرة واسعة ملأت الآفاق !!

الوديع... هازم الجبابرة

أحب بنى وطنه ثم تدرج فى حبه فشمل الانسان فى كل مكان، وترجم هذا الحب إلى أعمال فكان بسيطاً متقشفاً زاهداً مدافعاً عن الخير والحق والحرية والقيم النبيلة كلها وأختتم حياته شهيداً لحبه وعدم تعصبه ... إنه

(المهاتما غاندى)

- ما هى المبادئ النبيلة التى تصنع الزعماء ؟
- على الرغم من ديانة غاندى بالهندوسية إلا أنه أحب الأنجيل وقرأه ... ما هى تلك المبادئ التى تعلمها من آيات الانجيل وأحبها ...؟
- أذكر الآيات التى كان غاندى يحفظها وينادى بها لمحاربة التعصب والعنف ؟

ولد غاندى فى مدينة بورباندر على ساحل الهند الغربى سنة ١٨٦٩، وكان أبوه وزيراً مهماً فى إحدى الإمارات، وعنه ورث غاندى الصدق والشجاعة والزهد فى المال، وفى نفس الوقت كان قد إبتعد غاندى عن سلبياته المتمثلة فى سرعة الإنفعال، والميل الى الملذات الحية، وورث عن أمه كل شئ إذ كانت إمرأة فاضلة شديدة الورع على قدر كبير من الذكاء، تؤدى فرائض دينها من صوم وصلاة وفق الديانة الهندوسية حتى فى أثناء المرض وكان غاندى يصغى لها ويشنف أذنيه بتراتيل الصباح التى تنشدها له ....

وفى سن السابعة التحق بإحدى المدارس الابتدائية، وكان تلميذاً متوسط الذكاء خجولاً، لا يعرف الأصدقاء ولما بلغ الثامنة عشرة انتقل الى المدرسة الثانوية، وهناك لم يكن له أصدقاء غير كتبه، يذهب إلى مدرسته صباحاً ويعود مسرعاً إلى بيته، وقد وقع له حادث فى هذه المدرسة لم يمح من ذاكرته طوال حياته، فقد زار المدرسة مفتش التعليم ليطمئن على مستوى التلاميذ ، وأملى عليهم خمس كلمات ليكتبوها ..وتوقف غاندى عند كلمة منها لم يتذكر حروفها ورآه المدرس وهو تائه عن الصواب فغمزه بمقدمة حزائه لكن. غاندى الفتى البرئ لم يفهم هدف المدرس، فقد كان مدرسه يريد منه الإطلاع على صواب الكلمه من زميله المجاور ، وكانت نتيجة ذلك أن أصبح غاندى الوحيد الذى لم يصل الى الاجابة الصحيحة لأنه رفض الغش....

وتتلاحق أحداث حياة غاندى سريعة فيتزوج وهو مازال طفلاً فى الثالثة عشرة من عمره، ولم تكن له إراده أو رغبة فى هذا الزواج، ولكنها العادات والتقاليد الموروثة والتى ثار عليها بعد ذلك.. وشاءت ظروفه أن يتعرف على أحد أصدقاء السوء فى المدرسة، وأراد أن يصلحه ويوجهه الى الطريق السليم، لكن صديق السوء هو الذى أثر فى غاندى، على الرغم من تحذير أمه وأخيه وزوجته منه. واستطاع رفيق السوء أن يقنع صاحبنا بضرورة تناول اللحوم فهو السبب فى قوة الأقوياء وسيطرة الاستعمار، وضعف غاندى أمام هذه الاغراءات، وقرر أن يتناول اللحم لأول مرة حتى يصبح قوياً وشجاعاً، ولأن تناول اللحوم كان محرماً على أبناء الديانة الهندوسية، فقد أخذ يتناوله بعيداً عن بيته وعلى شاطئ النهر حتى لايغضب والديه. وللمرة الأولى لم يعجبه لحم الماعز ولم يلتذ به. وكان يقاوم هذا الشعور بغية البحث عن القوة من أجل الإصلاح وطرد الاستعمار، غير أنه قرر بعد عام من هذه التجربة أن يكف عن أكل اللحم حتى لايضطر الى الكذب على أبويه.

ولم يكن تناول اللحم هو الرذيلة الوحيدة التى شجعه عليها صديق السوء، وإنما هناك رذائل أخرى مثل التدخين، والذهاب الى أماكن اللهو القبيح... ولكنه سرعان ما كان يتوب ويعود إلى رشده. وأصيب والده بمرض ومات وبعد وفاة والده تعثر غاندى فى الدراسة، وأقترح صديق الأسرة أن يكمل غاندى دراسته فى إنجلترا لدراسة القانون ووافقت الأسرة على سفره بعد أن تعهد لهم بأن لا يمس الخمر ولا يأكل اللحم.

وفى إحدى جولاته فى شوارع لندن عثر على مطعم نباتى، فسرَ بذلك، وقبل أن يدخله لمح على الباب كتاباً معروضاً للبيع تحت عنوان "مناشده من أجل النظرية النباتية" فأشتراه ثم أكل بشهية فى هذا المطعم النباتى، وبعد أن قرأ الكتاب أصبح غاندى نباتياً بمحض إرادته بعد أن كان نباتياً بحكم عادات وتقاليد بلاده، وأخذ يشجع الآخرين على ذلك، وأقام نادياً للنباتيين.

إجتاز غاندى دراسة الحقوق بنجاح وأصبح عضواً فى جماعة محامى إنجلترا، وعند عودته إلى بلاده كان أول أهدافه رؤية أمه، ولكنه فجع بوفاتها ..... وبدأ غاندى حياته العملية وانتظر القضايا ليمارس مهنته كمحامى، وأخيراً جاءه من يطلب منه الدفاع فى قضية بسيطة فقبلها ، وأمام المحكمة وقف يدافع عن المدعى عليه، ولكن خجله لم يسمح له بذلك ، فدارت رأسه ولم يملك إلا أن يطلب من موكله إسناد القضية إلى محام آخر، وقرر ألا يقبل قضية أخرى إلا بعد أن يجد فى نفسه القدرة والشجاعة اللازمة. كان يؤمن إيماناً شديداً بالله، وكان يحب روح التسامح نحو جميع الأديان -قرأ الكتب المقدسة، وقرأ الأنجيل، وأبدى إعجابه بالعهد الجديد، ولأنه نشأ على الحب والتسامح فقد شدته موعظة السيد المسيح على الجبل، وبخاصه الآية التى تقول (لا تقاوموا الشر بالشر ... بل من لطمك على خدك الأيمن حول له الآخر، أيضاً ومن طلب منك ثوبك فأعطيه رداءك أيضاً." وكان

غاندى يعجب بالمسيحية ولكنه أعثر بسبب سلوك الإستعمار الانجليزى وقال : "لولا المسيحيين لصرت مسيحياً"

وسافر غاندى الى جنوب أفريقيا ليترافع عن أحد الشركات فى قضية كبيرة وهناك بدأ رسالته الكبرى فى الدفاع عن الإنسان مهماً أختلف لونه أو جنسه. هاجم الإستعمار وإستخدم أساليب جديدة شدت إنتباه العالم كله، وجعلت منه زعيماً ثائراً وقديساً طاهراً .... بعد وصول غاندى الى جنوب أفريقيا بأيام معدودات بدأت أولى مشكلاته مع أحد القضاه الذى إستنكر عليه أن يرتدى العمامة أمامه، وطلب منه خلعها ولكن غاندى لم يأبه بطلب القاضى، وشكلت العمامة بعد ذلك قضية فكرية تناولتها الصحف. وأستطاع غاندى أن يقسم الرأى العام الى فئتين إحداهما تعارض إرتداء العمامة والأخرى توافق عليها، ومع كل هذا تمسك بها وظلت تغطى رأسه حتى نهاية إقامته فى جنوب أفريقيا، وبينما غاندى ينتقل من بلد الى آخر فى جنوب أفريقيا عن طريق القطار وكان وهو راكب بالدرجة الأولى، إذ براكب يدخل مقصورته عن طريق الخطأ ثم ينظر اليه بدهشة وإزدراء فلما وجده ملوناً هرول إلى الخارج وعاد ومعه إثنان من موظفى السكة الحديد، لحقهما موظف ثالث، طلب من غاندى مغادرة مقعدة فوراً والذهاب الى مقاعد الدرجة الثالثة، حيث كانت مخصصة للملونين. ودار نقاش حاد بينهما الى أن جاء شرطى وألقى بغاندى وحقائبه على الرصيف. قرر غاندى أن يدرس أحوال الهنود فى جنوب أفريقيا ، والصعوبات التى يواجهونها والتفرقة والمهانة والظلم الكبير الذى يعانوه .

وبينما كان يتصفح ذات يوم صحف الصباح وقفت عيناه على خبر يقول أن المشروع الخاص بقانون حرمان الهنود من حق التصويت فى انتخابات مجلس "ناتال" التشريعى يعرض لأخذ الموافقة على إعتماده ..... غضب غاندى جداً وأسرع بكتابة برقيات الى رئيس المجلس التشريعى وإلى رئيس الوزراء يطلب منهم إرجاء دراسة هذا القانون، وأخذ توقيع ١٠ آلاف مواطن هندى وأرسل إلتماساً إلى المجلس وصوره منه الى الصحف ووسائل الإعلام، وإستطاع بذلك أن يلفت نظر العالم الى قضية بنى وطنه والى الظلم الإجتماعى الناتج عن التفرقة العنصرية فى العالم، فالتف حوله أبناء وطنه وأصبح أملاً لهم .... ومن ثم عكف على تأليف كتاب عن مشاكلهم أسماه (الكتاب الأخضر).

عاد غاندى فى أجازة الى بلاده وبعد إنقضاء الأجازة رجع مرة أخرى الى جنوب أفريقيا ومعه ثمانمائة من مواطنيه على ظهر سفينتين، وما إن وصلوا الى ميناء دربان حتى بدأت المصاعب الكثيرة والمظاهرات الضخمة ضد الركاب من قبل البيض. وكان المقصود من كل ذلك هو غاندى نفسه لأنه هاجم البيض فى كتابه، وأعتقد البيض خطأ أن غاندى أحضر هذا العدد الكبير من الهنود كى يغيظهم، فتظاهر البيض وأخذوا يرجمونه بالطوب والبيض الفاسد وأنهالوا عليه ضرباً وركلاً حتى أنقذته زوجة مدير الشرطة من أيديهم، وأستقر فى داره بعد أيام من هروبه لدى أحد أصدقائه.

تحلى غاندى بصفات الصدق والشجاعة والصبر وحب العمل وصفاء الذهن، وكانت حياته أشبه بالراهب الناسك لهذا أطلق عليه المؤرخون لقب قديس القرن العشرين، وبعد قضاء واحد وعشرون عاماً فى جنوب أفريقيا عاد غاندى الى وطنه الهند، عاد مستريح النفس كالجندى المنتصر فى معركته، فقد إستطاع خلال هذه السنوات أن يدافع عن أبناء وطنه، وعن الملونين جميعاً فى جنوب أفريقيا وحقق لهم السلام والأمن، وألغى القوانين المجحفة بهم.

عاد غاندى إلى بلاده عام ١٩١٤ وهى السنة التى إشتعلت فيها الحرب بين المانيا من جهة وبريطانيا وحلفائها من جهة أخرى وطلبت بريطانيا مساعدة الهند مقابل منحها مزيداً من الحقوق بعد أنتهاء الحرب، ووثق غاندى بهذا الوعد وشجع أبناء وطنه على الإنضمام الى صفوف الجيش مما جعل بريطانيا تكسب الحرب فعلاً ولكنها لم توفى بوعدها، فقام الشعب بمظاهرات ضخمة مطالباً بالحكم الذاتى وأشتعلت المظاهرات يوماً بعد يوم ومات المآت من أبناء الشعب الهندى مطالبين بالإستقلال ونادى غاندى بأن لايستسلموا للظلم ودعاهم للمقاومة ولكن بلا عنف فترك الشعب جميع أعمالهم الحكومية وعطلوا العمل بالهيئات والوزارات وتبعوا غاندى فى تحدى للقوانين الظالمة . ولم يفلح البريطانيين فى تهدئة الشعب الهندى عن طريق البطش والقوة..... بل ذادهم ذلك إصراراً والقوة .

علم غاندى شعبه الإعتماد على النفس وصناعة ملابسهم بأنفسهم، عن طريق عجلة الغزل، فالعمل اليدوى شرف للإنسان ويذيد من

قيمته، وعندما فرضت ضريبة على ملح الطعام، وهو طعام الفقراء ، خرج غاندى من مدينة أحمد آباد ومعه حشد كبير من أتباعه ومحبيه رجالاً وأطفالاً ونساءاً فى رحلة طويلة أستمرت ٢٤ يوماً حتى وصلوا الى شاطئ البحر وهناك أخذ يستخرج ومن معه الملح من مياه البحر، معلناً أن ذلك من حق الفقراء مجاناً .

وهكذا كان غاندى ومازال نموذجاً لأبطال التحرير والثوار الوطنيين فى كل مكان فى العالم. وحصلت الهند على أستقلالها بفضل كفاح غاندى وصموده، وهكذا كان غاندى الثائر الوديع ينتقل من مكان إلى مكان يضمد جروح المتألمين ويواسى المحزونين من أى لون أو جنس أو دين، حتى أن بعض المتعصبين من الهندوس غضب منه لمعاملته الحسنة مع الأديان الأخرى فأصابه بطلق نارى وهو ذاهب للصلاة - ومات غاندى وهو يتمتم (رام .... رام) أى (الله ..... الله)، وبذلك إنتهلت حياة بطل القرن العشرين. العبقرى الذى هزم بهدوئه ومبادئه الإنسانية اليأس من الإحتلال ... والإستعمار واللا إنسانية .....